الحيوية والتربية[1]

لعلي أدهم

كلما ارتفع الحيوان في سلم الترقي كان عند ميلاده اشد حاجة الى الرعاية والتعهد وطول الحضانة ، وأحط الحيوانات وأدناها وهي « الأميبة » عند ما يصبح لها وجود مستقل وتنفصل عن غيرها بطريق الانقسام تكون مزودة بكافة الخصائص اللازمة لحياتها ومقومات كيانها ، وكلما ارتقى الحيوان وسما شأنه طال الأمد على احرازه للاستقلال بعد ظهوره بالوجود الفردي ، فالحيوانات ذوات الثدي تحتاج الى رعاية وطول تعهد قبل ان تستطيع الاعتماد على نفسها والاكتفاء بذاتها ، والانسان يتقدم بخطوات ابطأ وتستغرق حضانته زمناً أطول ، وهو يحتاج في تنشئته الى عناية اكثر من الغاية اللازمة لتنشئة سائر الحيوانات التي تعيش على سطح الكرة الأرضية . وفي حدود الانسان نفسه فان نسبة مدة التربية تتفاوت بتفاوت نصيب الامة من الترقي والحضارة فالهمجي سرعان ما تكمل تربيته ويتيسر استقلاله والمعروف ان المرأة أسرع نضجاً من الرجل

وسرعة التقدم لا تدل بحال على التفوق العقلي التالي ، فالطفل الذي أسرع نموه وتكامل تكوينه في السابعة من عمره لا يستلزم ذلك ان نسبة نموه ستصير سيراً مطرداً وليس من المستبعد ان يحدث نقيض ذلك فيتعطل نموه ويمتنع تقدمه . وقد ينشأ قصير القامة ضئيل الجرم ، والطفل الذي يبدو باكر الذكاء وافر العقل قد لا يكون مبشراً بان عقله سيتابع تقدمه حتى يتم نموه ويبلغ منتهى أمده ، وبعض الاطفال المتخلفين عندما تتقدم بهم السن يكشفون عن ملكات باهرة وقوى عقلية ممتازة فالعلامة الباني الذائع الصيت ليبوس Linnaeus كان في صباهم بطيء دراسته المدرسية الى حد ان والديه يئسا من تقويمه واصلاحه وصمما على انشائه اسكافاً ولكن بعض الاطباء لحظ مواهبه الكامنة واوصاهما بارساله الى المدرسة ، ولم يكن بيوتن تلميذاً نجيباً وكان في مؤخرة قرنه

(١) رجعت عند كتابة هذا المقال الى ما كتبه في هذا الموضوع الدكتور وليم هرش الاماني و فكتر الانكليزي نيت (Nisbet) والفيلسوف برتراند رسل وغيرهم من الباحثين

وأهم من تذوق الطفل الباكر — وهو امر يطلق عليه بعض الآباء والامهات شأناً أكبر مما يجب — توخي التناسق والملاءمة والاتزان في تكوين العوامل النفسية المختلفة والجوانب العقلية المتباينة ، والاحتياط العقلي الذي يؤخذ على بعض الاطفال لايدل في أغلب الاوقات على تقدم عام بطيء ، وانما يدل على أن العوامل العقلية المختلفة لاتنمو نمواً متناسباً ، وعلى أن هناك اختلالاً داخلياً مصدره تفاوت مدى التقدم بين العناصر العقلية المختلفة ، ومن لوازم العقلية المتزنة المتناسقة الاحتفاظ بالتوازن بين الفهم والاحساس ، وبين الادراك والذاكرة ، وبين الارادة وقوة الملاحظة والانتباه

والتربية الصحيحة الحقة يلزم أن ترمي الى تناسق النمو العقلي وأن تعنى عناية خاصة بتناول الاطفال ذوي الملكات غير المتناسبة والموازين المختلة ، وبعض الأطفال منذ نشأتهم يبدو في أعمالهم وسلوكهم أثر الدوافع القوية والميول الحافزة ، وبعضهم يظهر تقدماً غير مألوف في إرهاف المشاعر وفرط رقة القلب ، وأمثال هؤلاء اذا تركوا وشأنهم ولم تتذبب التربية الصالحة من هذا النمو الوجداني ، واطلق العنان لمشاعرهم سرعان ما تنتابهم ضروب مختلفة من الهستريا واضطرابات الأعصاب ، وبعض الأطفال ينشأ بطيء خامد المشاعر بليد الاحساس ، فمثل هؤلاء في حاجة ماسة الى مايحفز مشاعرهم ويفجر العواطف في نفوسهم ، ومنهم من ينشأ ضعيف القدرة على حصر الفكر وتنظيمه فهو في حاجة الى من يأخذه بأساليب المنطق ويعوده التفكير الصحيح

ومن المسائل التي لاتزال في مثار الخلاف تأثير التربية في الاخلاق ومدى استطاعتها ازالة اضطرابات عملية النمو وحركات التكوين ، وينكر بعض الناس تأثير التربية إنكاراً مطلقاً ، ويعتقدون ان البشري يستطيع في مختلف الظروف أن يشق طريقه ويذلل ما يعترضه من العقبات ، والذين ولدوا مصنوعين على الاجرام لا تستطيع تقويم أخلاقهم وتهذيب طباعهم مهما نبذل من الجهد ، لأن عوامل الاجرام ستسير سيرتها وتؤثر تأثيرها وتتغلب على عوامل التربية الصالحة ، ولكن هذا الرأي لا يخلو من إسراف قد يعادله من ناحية أخرى اسراف القائلين بأن التربية تصنع كل شيء وتخلق المواهب وتوجه الملكات ، والانسان في نظر أصحاب هذا الرأي هو ما صنعته التربية وصاغته النشأة ، ونظرتهم قائمة على فكرة خاطئة مؤداها أن عقل الانسان عند ميلاده يشبه صفحة بيضاء ، وان ما يطرأ عليه من التغير والتهذيب مرده جميعه الى التربية ، ولو ربي طفل على الاسلوب الذي تربى عليه جيتي لأصبح مثل جيتي ولو اننا جعلنا أي انسان يعزل عن الاحاسيس المختلفة توقف نمو عقله وصوّحت عبقريته ، ولكن الأحاسيس وحدها ليست كافية اذا لم يكن هناك الاستعدادات الكامنة والقوى الدفينة التي تثيرها وتنشطها ، وأقوم تربية لاتستطيع ان تخلق من الفدم الغبي حكيماً راجح الحصاة ولا أن تحيل الركيك العقل عبقرياً موهوباً

والعقل الذي يعاني منذ نشأته الباكرة أشد الحاجة ويرى حوله مظاهر القسوة والشر تتبلد مشاعره ، وقد يطغى ذلك في نفسه ظهور العواطف الكريمة والاحساسات الرقيقة ، والطفل الذي أعمل تدريب عقليسيكون أقل قوة من الطفل الذي مرن عقله وشحذ ذكاؤه ، وفوق ذلك سائر المواهب العقلية مثل قوة الذاكرة والقدرة على الاستيعاب والتحصيل والارادة القادرة والجد والميل الى الاتقان والاجادة ، فجميع هذه القوى تتأثر الى مدى بعيد بالوراثة والتعود

وتدلنا التجارب والمشاهدات على أن التأثيرات التي تلم بالناس العاديين في مطالع حياتهم وأوائل نشأتهم يكون لها تأثير عظيم فيهم في سائر أدوار حياتهم ، ولا ريب في أن تأثر الطفل العبقري الموهوب سيكون أقوى وأدوم وأبعد مدى وأعمق جذوراً ، لأن مثل هذا الطفل حتى في طفولته الباكرة سيكون شديد اليقظة قوي الملاحظة ، وهو يستوعب التأثرات ويختزن الاحساسيس أكثر من غيره ، كما أنهُ سيكون أقدر من غيره على الاستنباط واستخلاص الحقائق من ثنايا التجارب والمشاهدات ومن شأن خياله اليقظ الوثاب أن يجعلهُ أكثر استهدافاً للتأثرات من غيره سواء كانت تلك التأثرات ضارة أو نافعة ، ومما يروى عن جيتي أنهُ عند ما سمع وهو في السادسة من عمره بزلزال لشبونة المشهور الذي هلك فيه ستون الفاً في طرفة عين غامت نفسه ، ودبَّ الشك في قلبه ، وانهار ايمانه بالعناية الالهية

وكثير من العظماء والعبقريين أظهروا استعداداً باكراً غير مألوف ، ولكن هذا ليس قاعدة مطردة ، فبعض العبقريين كانوا أطفالاً عاديين ، ومن الحقائق المعروفة أن كثيراً من الاطفال الوادعين لم يحققوا الآمال التي كانت معقودة بهم وخابت فيهم الظنون ، وربما كان مصدر ذلك أسباباً خارجية ، ولكن في حالات كثيرة يمكن أن نرد أكثر تلك الأسباب الخارجية الى سوء التربية فان التربية الفاسدة قد تفوّت على العالم فرصة الانتفاع بثمرات الموهوبين والعبقريين

ومهما يُقل في التربية والتقليل من خطرها فانها هي الاساس الذي يقوم عليهِ بناء الرجل والتأثرات التي نتلقاها في الصغر لها تأثير حاسم في تكوين الاخلاق ، وهي التي تمهد الاستعداد والقابلية للامراض العصبية والعلل النفسية . وتأثير التربية يتلو في الخطورة تأثير الوراثة وكثيراً ما نعزو الى الوراثة أشياء ربما كان مصدرها التربية . فالطفل في بعض الاوقات يقتبس ممن حوله الآراء الشاذة والميول الملتوية ويتشبه بهم في نظرتهم الشاذة الى الحياة ويأخذ بأساليبهم المعوجة في معالجة مشكلاتها ، وذلك بدافع التقليد والاقتداء ، ووجود الطفل تحت إشراف أب مشوَّه العقل كثير الاختلالات مما يجعل سعادة الأسرة سريعة الزوال ولا يتيسر بذلك

تهيئة الأحوال التي تعين على نمو ملكات الطفل نموًّا متسعاً

وليس المهم في التربية مقدار ما نحفظهُ الطفل ومدى سعة ذهنهُ لأن ذلك يمكن تحصيله بالمثابرة والاجتهاد ، وانما المهم هو انماء القدرة على الفهم والتفكير المنطقي ودقة الملاحظة وحصر التفكير وهي أشياء يجب تمهدها منذ الصغر ، واذا أهملت فمن المتعذر استدراك ذلك واصلاحه

والعناية بالتربية البدنية لازمة الى جانب العناية بالتربية العقلية ، وربما كان الأطفال المبكرو الذكاء في حاجة أمس الى تلك العناية ، لأن امثال هؤلاء الأطفال يحسن ان يجد طموحهم ولا يباح لهم الاسترسال المطلق مع الأوهام والاذهال في الأحلام وان يوجه نظرهم الى الحقائق الجافة والوقائع المرة التي قد تعترض أحلامهم وتجعلهم يستفيقون من الغرور والزهو . ومن أهم الأشياء في التربية ان تسترعى نظر الأطفال الى تقدير المبادىء الأخلاقية السامية والنزعات الانسانية الكريمة ، وحب الحق والوفاء بالوعد والترفع عن الاثرة على شريطة ألاَّ تلقنهم ذلك بطريقة جافة عمة ، ومن أهم العناصر في تكوين الأخلاق وبناء الشخصية صقل العواطف ، وتهذيب المشاعر ، والتربية الحقة هي التي يعنى فيها بتربية العقل والقلب معاً

والأقاصيص الخرافية لها تأثير سيء في الأطفال المشبوبي الخيال ، وهي تضعف شخصيتهم وتوحي اليهم الفزع والرعب ، والأطفال الذين يغلب عليهم الخيال والوهم لا مفر من العناية بتوجيه التفاتهم الى حقائق الحياة ، والاكثار من الأقاصيص المثيرة للخيال ضار بهم لأنها تباعد ما بينهم وبين حقائق الحياة ، ولو ترك لأمثال هؤلاء الأطفال الحبل على الغارب لكثرت أوهامهم وتداعت أحلامهم ، وعندما تسفر لهم الحقائق تنقضُّ على رؤوسهم تصور الأوهام وأبنية الخيال

والتربية العلمية هي من أعمال الوالد والمربي ، وتربية العاطفة والوجدان من واجبات الأم ، ولهذه التربية العاطفية تأثير كبير حتى ذهب المفكرون الى أن أكثر العظماء قد تأثروا بأمهاتهم ، وهذا رينا الدور العظيم الذي تقوم به الأم في التربية وتكوين الاخلاق

واذا القينا نظرة على حياة جيتي في ضوء هذا الرأي ظهر لنا أثر التربية الصالحة في انماء الملكات المتوازنة واستكمال نواحي الشخصية ، وقد كان جيتي منذ طفولته الباكرة كثير المطالعة موفق الملاحظة منطقي التفكير مستقل الرأي ، وقد تفتحت الى جانب ذلك شاعريته وتأهب عقله لقبول التأثرات المختلفة ، وقد قام أبوه بنصيب وافر في انماء عبقريته من الناحية العلمية ، وعرفت والدته كيف تثير خياله وتحرك شعوره بالجمال والنبل [1] ، وكانت تقص عليه كل ليلة الأقاصيص الحسان حتى يغمض الكرى جفنيه

ولم يكن شاعر الألماني في بواكير حياته ظاهر التفوق والنجابة ولو انه كان مجدًّا

(١) راجع حياة جيتي للمفكر الانكليزي لويز

ومثابراً وكان يشعر بأنه لا يستطيع أن ينال شيئاً بغير الكد والارهاق ، وكانت نشأته شديدة صارمة ، وقد احاطته أمه بجو من العطف مشجع كان له تأثير كبير في تكوينه

ورافائيل فقد والده في الثامنة من عمره ، وفقد أباه في الحادية عشرة ولكن رغم ذلك تلقى تربية صالحة ، وكذلك حالبلبو وبيتون ومن اقواله عن امه « ان أمي لا تنس اني فقد القت في نفسي بذور الخير وفتحت فابي لتأثرات الطبيعة ، وأيقظت أفكاري وأيدت مطارحها ولا يزال لما تعلمته منها اثر باق في حياتي » . وكثير من الشذوذ الذي لمحه في حياة بعض العبقريين مرده الى عيوب لحقت تربيتهم ونشأتهم

وقد كانت ام شوبنهاور امرأة موهوبة ، ولكنها كانت فاترة المشاعر وقد نشأ بينها خلاف أدى الى مقاطعته لها ومحافظها إياه ، وقد عاشت امه بعد هذه المقاطعة اربعة وعشرين عاماً دون ان يلتقيا او ان يرى احدهما الآخر ، ولو انها عادت الى مراسلته قبل موتها بستة اعوام[1] وحرمان شوبنهاور من عطف الامومة كان له تأثير عميق في حياته ، وقد كان لهذا الخلاف الذي ثار بينه وبين امه اثر ظاهر في سوء رأيه في النساء الذي بسطه في مقاله المشهور عن المرأة

وكثير من السخافات والحماقات والاخطاء التي تنكشف عنها حياة روسو مصدرها التربية الناقصة والظروف الحرجة التي مر بها

وقد تولت تربية بيرون امه وكانت امرأة ضيقة الاعصاب حادة الاخلاق فنشأ من جراء ذلك في اخلاقه بواعث الاضطراب وعوامل القلق والتبرم ولم تسر عبقريته في طريق النمو التام

وكون كثير من العبقريين شقوا طريقهم برغم التربية الناقصة لا يناقض هذا الرأي لاننا لا نعرف مدى الكمال الذي كان يمكن ان يبلغوه لو حسنت تربيتهم واستقامت طريقتهم ، ومع ذلك فان كل قاعدة تتسع للشواذ وبيتهوفن — وهو اعظم عبقرية موسيقية عند كثير من الناس — قد استطاع انماء عبقريته ولم يعقه عن ذلك قسوة الظروف التي احدقت به

ويبدو تأثير التربية السيئة في الأطفال الذين رجح فيهم جانب النحل على الجوانب الأخرى ، فان أمثال هؤلاء الأطفال يمكن أن يصيروا رجالاً صالحين لو تكفلتهم ظروف حياتهم من التربية التي تنمي فيهم قوة الذاكرة وانشاء اليقظة واثارة الارادة في حين ان اهمال ذلك يلحقهم بالعبقريات الفاشلة الزائفة

وأثر التربية لا تتكفل به المدرسة وحدها وانما الأسرة لها نصيب وافر فيه وبخاصة الام ، وجبل برناس الصخري المنيع لا يبلغ الانسان قمته الا بعد المحاولات المتصلة والمجهود الدائب

---

(١) كتاب حياة شوبنهاور للاستاذ Wallace ج ٢ صفحة ٧٩